سلسلة مدخل إلى الكتاب المقدس

سفر النبي إشعياء

المطران سابا (إسبر)

٢٠٢٠

*صورة الغلاف رسم طلال إسبر.

مقدمة موجزة: رسالة الأنبياء

يختار الله إنساناً ويدعوه كي يحمل كلمته إلى الشّعب، فيُدعى نبيّاً. يبلّغ النّبيّ كلمة الله في إطار الواقع الّذي يعيش فيه والشّعب، وهذا ما يُسمّى في اللاّهوت «هنا والآن». غالباً ما رفض السّامعون كلمة الله هذه، وحالنا ليست أفضل منهم دوماً، لكنّهم يتيقنّون من صحّتها بعد زمنٍ، حينما تتحقَّق الأمور الّتي تكلّم النّبيّ عنها. وقد أورد الأنبياء أموراً كثيرة تحقّقت في المسيح، هذه ندعوها «نبوءات مسيحانيّة».

يدعو الله كلّ نبيّ بطريقة مختلفة، لكنّه يحمّله كلمته إيّاها. يذيع النّبيّ كلمة الله الّتي غالباً ما تخالف مشيئة البشر ومسلكهم، لأنّ دعوة النّبيّ الرّئيسة هي إلى التّوبة والالتجاء إلى الله مصدراً وحيداً للنّجاة والخلاص.

يخاطب الله شعبه بواسطة النّبيّ من خلال الأحداث الرّاهنة للواقع. لذلك نجد الأنبياء يتدخّلون في سياسة الملك والمملكة ويقولون عكسها في أغلب المرّات. إذا ما دعا نبيّ إلى عدم الانجرار وراء طلب الحماية من مصر لمقاومة بابل، أو طلب نبيّ آخر عدم مقاومة أشور لأنّها أداة الله لتأديب الشّعب، واعتبر نبيّ ثالث قورش ملك فارس مسيح الله، فلا يعني هذا أنّ النّبيّ محلّلٌ سياسيّ أو رجل سياسة، بل رجل الله الّذي يقرأ ما يحدث قراءة دينيّة على ضوء الخلاص المطلوب. همّه أن يتحقّق تدبير الله لخلاص شعبه، وتالياً إتمام العهد المعقود بينهما منذ زمن موسى النّبيّ.

يكشف الله عن ذاته من خلال التّاريخ وأحداثه. فأمام شعبٍ بدويّ وغير متحضِّر ولا يملك فكراً أو ثقافةً، اختار الله أن يعرّفه بنفسه، شيئاً فشيئاً، بشكل حسّيّ ومنظور. عرف الشّعب أنّ ربّه سيّد التّاريخ. من

هنا كانت رسالة الأنبياء قول كلمة الله الآنيّة في الوقت المطلوب مهما كان عصيباً، ومهما كانت الكلمة قاسية وثقيلة على القلوب. من هنا ضرورة معرفة حيثيّات الزّمن الّذي عاش فيه كلّ نبيّ لنتتبّع كلمة الله المنطوقة في شأنها، ونفقه معناها الآنيّ والمستقبليّ.

النبي إشعياء (1)

رأى الأدب المسيحيّ فيه «الإنجيليّ الخامس»، لكثرة النّبوءات المسيحانيّة الواردة في سِفره، بدءاً بولادة المسيح الموعود به من عذراء، إلى الكلام على آلامه في شخص مَن يدعوه الأدب (الكتابيّ) البيبلي[1] «عبد يهوه المتألّم». هذا يصفه إشعيا في خمس قصائد، رأت الكنيسة فيها صورة المسيح المتألّم فداء للبشريّة.

عرَّف به أحد علماء الكتاب المقدّس هكذا: «نبيّ أرستقراطيّ نشره الملك مَنَسّى، بحسب التّقليد، إلى اثنين، وقسمه علماء الكتاب المقدّس إلى ثلاثة[2]». عاش النّبيّ إشعيا في القرن الثّامن قبل الميلاد. وُلد حوالي السّنة 765. بدأ رسالته، الّتي دامت أربعين عاماً، في السّنة 740 ق.م. مارس نبوّته في ظروف سياسيّة صعبة وشائكة.

يعني اسمه بالعبريّة «يشوع يهوه»: الرّبّ خلاص. ينتسب إلى أشراف أورشليم، ولذلك عَرف، عن قرب، ترف الأغنياء وبَطَرهم.

---

(1) درج في الآونة الأخيرة استعمال كلمة بيبليا للدّلالة على الكتاب المقدّس المدعوّ باليونانيّة «بيبلوس»، ومعنى الكلمة الحرفيّ «كتاب». والصّفة «بيبلي» تعني «كتابيّ»، لكنّها تدلّ على الكتاب المقدّس عند المسيحيّين حصراً. يدعى الكتاب المقدّس باللّغات الأوربيّة المشتقّة من اللاّتينيّة «بيبل» أو «بايبل».

(2) يعتبر كثير من علماء الكتاب المقدّس، اليوم، أنّ كتاب النّبيّ إشعيا يضمّ ثلاثة كتب تغطّي حوالي 180 سنة، ويعود كلّ منها إلى نبيّ مختلف من تلاميذ النّبيّ إشعيا. لذلك يطلقون عليها أسماء النّبيّ إشعيا الأوّل والثّاني والثّالث. في عرضنا هذا سوف نتبع التّقسيم التّالي: القسم الأوّل والثّاني والثّالث.

وتكلّم التّقليد المسيحيّ على اضطهاد الملك مَنَسّى له، فقضى شهيد كلمة الله بأمر من الملك الشّرّير. لا يبدو أنّ إشعيا خرج من أورشليم وجوارها، ولكنّ كلمة الله الّتي حملها وصلت إلى أصقاع الدّنيا. ما زلنا نقرأها إلى اليوم على ضوء العهد الجديد، ونرى شخص المسيح فيها، كما فعل السّيّد عندما قرأ منها في مجمع النّاصرة. يقول إنجيل لوقا إنّه أغلق السِّفر، وبدأ تفسيره هكذا: «**اليوم تمّت هذه الكلمات الّتي تلوتها على مسامعكم**» (لو21/4). تمّت رسالة إشعيا النّبويّة بالمسيح.

خلفية القسم الأول التاريخية

انقسمت المملكة إلى اثنتين بعد سليمان: المملكة الشّماليّة ودُعيت إسرائيل وعاصمتها السّامرة، والمملكة الجنوبيّة ودُعيت يهوذا وعاصمتها أورشليم. فيما كانت مملكة يهوذا صغيرة وذات طبيعة جبليّة فقيرة ماديّاً، كانت مملكة إسرائيل قويّة وغنيّة وذات موقع استراتيجيّ، يخترقها ممرّ استراتيجيّ تجاريّ يصل ما بين مصر وبلاد الرّافدين.

عرفت المملكة الشّماليّة سلسلة من الأنبياء كإيليّا وعاموس وهوشع، فيما بقيت يهوذا المركز الدّينيّ لأنّ الهيكل في وسطها. عرفت إسرائيل تقلّباً سياسيّاً، بينما احتفظت يهوذا باستقرار سياسيّ. فسلالة داود بقيت على رأس المملكة الّتي عرفت درجة عالية من الاستقرار السّياسيّ والاقتصاديّ. في حين عرّض موقع إسرائيل المملكة الشّماليّة لتقلّبات عديدة، ساعد الاستقرار يهوذا على الانتقال بهدوء من الوضعيّة القبليّة إلى وضعيّة الحضَر الاقتصاديّ. على الرّغم من أنّها عرفت اتّزاناً اجتماعيّاً على نحوٍ ما، إلاّ أنّها عرفت ظلم الأسياد للوضعاء والأغنياء للفقراء.

عزا الكثيرون من أهلها الاستقرار إلى وجود هيكل الرّبّ والسّلالة الدّاوديّة فيها[3]. واعتقدوا أنّ الرّبّ أقام عهداً خاصّاً مع داود يَعدُه فيه باستمرار عرشه من بعده، وهذا ما عُرف باللاّهوت الدّاوديّ[4] أو المَلَكيّ.

عرفت يهوذا قمّة ازدهارها الاقتصاديّ والعسكريّ في أيّام الملك عُزّيّا. ولم تتهدّدها، بخاصّة، غير الإمبراطوريّة الأشوريّة المتعاظمة.

أتت دعوة إشعيا في زمن مأسويّ بسبب اقتراب الخطر الأشوريّ. فقد أتته الدّعوة في العام 742، سنة موت الملك عُزيّا. وخلال الأربعين السّنة التّالية تغيَّرت خارطة المنطقة السّياسيّة، وتتالت الأزمات. فأمام تهديد أشور المتنامي للمملكة الشّماليّة قام حلف بينها وبين مملكة دمشق، وحاول الملكان الضّغط على يهوذا للدّخول معهما في هذا الحلف ضدّ أشور. وكان أن غزا جيشهما المملكة الجنوبيّة. لكنّ تجلات فلّصّر الأشوريّ هزم سورية واجتاح جلعاد والجليل وسهل شارون في الأعوام 733 – 732. هذا كان الحدث الأوّل.

أمّا الحدث الثّاني، فهو حصار السّامرة. فقد أحاط شلمنصّر، خليفة تجلات فلّصّر، بالسّامرة (722 – 721)؛ ثمّ عبر سرجون الثّاني الطّريق السّاحليّ الفلسطينيّ، في العام 712، لقمع ثورة محلّيّة في أشدود. شهد إشعيا لمحاولة جنونيّة من يهوذا للتّآمر على أشور، وعرف أيّاماً عصيبة خلال غزو سنحاريب في العام 701.

عارض إشعيا، عبر هذه الأزمات، التّآمر على أشور، واعتبر المعاهدات ضدّها «عهداً مع الموت»، ما اختبرته المملكة الشّماليّة ودفعت ثمنه غالياً.

---

(3) بقي الملوك الّذين تناوبوا على حكم «يهوذا» من سلالة الملك داود.
(4) نادى إشعيا بالمخلّص الّذي سيأتي من نسل داود، وكان من أتباع هذا اللاّهوت.

كتاب إشعياء

يتألّف سِفر إشعيا من 66 فصلاً لا تعود جميعها إلى القرن الثّامن. قسّم علماء الكتاب المقدّس، بدءاً من القرن الثّامن عشر، كتاب النّبيّ إشعيا إلى ثلاثة أقسام، منها ما يعود للنّبيّ مباشرة ومنها ما زعموا أنّه يعود لتلاميذه، في إطار ما يسمّى، في علم الكتاب المقدّس، «مدرسة إشعيا». الأمانة الأدبيّة، يومذاك، قامت على حفظ تعليم النّبيّ، عن ظهر قلب، من قِبَل أتباعه وتلاميذه.

يقول النّبيّ إنّه، بعدما رفض الملك آحاز نصيحته، انسحب من الحياة العامّة، لكي «**يدوّن الشّهادة**» و«**يختم التّعليم بين تلاميذه**» (16/8 – 18؛ 8/30). وهكذا دوّن إشعيا، أو تلاميذه، أحاديثه وحفظوها بشكل أمين. ثُمِّنت هذه الكتابات وروجعت، فيما بعد، في ضوء تعليم إشعيا اللاّحق، وتسلّمها تلاميذه من بعد موته، وأضافوا إليها ما كانوا قد حفظوه من تعليم معلّمهم.

تقسيم الكتاب

يقسم كتاب النّبيّ إشعيا إلى ثلاثة أقسام :

– **القسم الأوّل**: يمتدّ من الفصل 1 وحتّى الفصل 39. تعود أحداثه إلى القرن الثّامن حينما عاش النّبيّ في مملكة يهوذا الجنوبيّة. يشدّد هذا القسم على قداسة الله وخطيئة الإنسان. كما يدعو إلى الالتجاء إلى الله لأنّه المخلّص الوحيد. يفضح إشعيا الممارسات الدّينيّة الطقسيّة الخالية من روح الشّريعة، ويُنذر بيوم الرّبّ الدّيّان

الّذي لن يكون، كما يظنّ الشّعب، يوم سلام وهناء، بل دينونة وتمحيص.

ـ **القسم الثّاني**: يمتدّ من الفصل 40 وحتّى الفصل 55. يركّز على الله الخالق الّذي يُعيد خلق الشّعب، شعباً جديداً، روحيّاً، من خلال خروج جديد، مؤكّداً أمانة الله لشعبه ووعوده. تعود أحداث هذا القسم إلى فترة الجلاء في بابل (القرن السّادس).

ـ **القسم الثّالث**: يمتدّ من الفصل 56 وحتّى الفصل 66. يركّز على شجب الخطيئة الّتي تشكّل العائق الأساسيّ أمام الخلاص، ويؤكّد أمانة الله من جديد. يَنهَى الشّعب عن عبادة الأوثان ويبيّن بطلانها وسخافة طقوسها، ويشدّد على العبادة بالرّوح دون التّقليل من أهمّيّة الطّقوس. تعود أحداثه إلى زمن العودة من الجلاء (أواخر القرن السّادس).

دعوة إشعياء

تعتبر رواية دعوة إشعيا (الفصل6) من النّصوص الكلاسيكيّة في الأدب النّبويّ، والأساسيّة في الإيمان المسيحيّ لِما تحتويه من معلومات لاهوتيّة قيّمة.

يرى النّبيّ السّيّد الرّبّ جالساً على عرش عالٍ وأطراف ثوبه تملأ الهيكل وحوله ملائكة السّيرافيم، يهتفون: «**قدّوس قدّوس قدّوس الرّبّ القدير..** ». وهي صورة ترد مراراً في العهد القديم. إنّها صورة الرّبّ الملك الجالس وسط مجلسه السّماويّ.

يرى النّبيّ نفسه، وسط هذا المجلس القدسيّ، إنساناً دنِس الشّفتين وغير طاهر. في حضور الله لا يمكن أن يقوم أيّ دنس أو نجاسة، لذلك يقول: «**ويل لي لقد هلكت**».

فيأتي أحد السّيرافيم ويمسّ فمه بجمرةٍ علامةَ تطهيره، قائلاً: «**انظر هذه مسّت شفتيك فأُزيل إثمك وكُفِّرت خطيئتك**»(7/6). يحتاج النّبيّ إلى أن يتطهّر قبل أن يصبح رسول الله. وعندما يسمع صوت الله وهو يسأل عمّن يرسل، يجيب إشعيا: «**ها أنا لك فأرسلني**». فيُفهِمه الرّبّ أنّه سيُرسَل إلى شعب «**قلبه قاسٍ وأذناه ثقيلتان وعيناه مغمضتان**». يؤمن النّبيّ، كسائر الأنبياء، أنّ جميع الأحداث تأتي من يد الله. وكما أنّ النّور المبهر يعمي العيون، هكذا ستزيد كلمات النّبيّ وآياته في عمى الشّعب، مع أنّ نيّة النّبيّ ليست هذه. يبدو من عمل إشعيا أنّ خطايا الشّعب وافتقاده إلى الحسّ الإلهيّ سيضطَرّان الله إلى الدّمار، حتّى يمسح كلّ شرّ ويعود الشّعب ليطلع كالفرع الّذي ينمو من ساق «**بلّوطة أو بطمة قُطعت وبقي ساقها**».

قداسة الله الّتي اختبرها إشعيا في رؤياه تلازمه، وعلى ضوئها يرى هشاشة شعبه وخطاياه. هذا حمّله مسؤوليّة خلاص هذا الشّعب الجاهل الّذي يسعى إلى هلاك نفسه بعيداً عن الإله القدّوس. قداسة الله تفترض قداسة الشّعب، أليس هذا ما يطلبه سِفر التّثنية؟ أَوَليس هذا ما طلبه المسيح من أتباعه؟ أمام القداسة الغائبة يصرخ إشعيا هكذا: «**للكهنة المملوءة أيديهم من الدّماء، ولأغنياء أورشليم الّذين عبدوا أموالهم، ولأمراء الشّعب الّذين يضلّونه، ولبنات صهيون اللّواتي وضعن رجاءهنّ في زينتهنّ ونسين الرّبّ، ولسياسيّي صهيون الّذين خانوا عهد الرّبّ وتابعوا عقد المعاهدات السّياسيّة مع الشّعوب الّتي لا تعرف القدّوس**». أوَلا يُفترَض بالنّبيّ أن يُنذِر بكلمة الخلاص ويدعو إلى تسوية الطّريق إليها؟

يوم الرب

إذا ما عدنا إلى الفصول الأولى من كتاب النّبيّ نجد أنّ موضوع رؤية دعوة إشعيا موضحة بأكثر تفصيل. يؤكّد النّبيّ ويكرّر تأكيده، بطرق وأحوال مختلفة، أنّ يهوه[5] عالٍ ورفيع وسيّد التّاريخ بكلّ صراعاته وهيجاناته وصراعات الأمم المحمومة. ويقول إشعيا، على غرار النّبيّ عاموس، إنّ يوم الرّبّ لن يكون يوم ضياء بل ظلام – يوم دينونة ضدّ كلّ رموز الكبرياء البشريّة والاكتفاء الذّاتيّ: ضدّ الفضّة والذّهب، والأحصنة والمركبات، والمدن الحصينة والسّفن العظيمة الّتي تصل إلى أماكن بعيدة (6/2 – 21). ليست هذه الكنوز الحضاريّة سيّئة بحدّ ذاتها، بل تصبح سيّئة عندما يترفّع البشر «**كأرز لبنان**»، ويبدأون يضعون ثقتهم بأنفسهم فيصبحون هدفاً للوثنيّة – لأنّ الوثنيّة تكمن في الثّقة بأيّ شيء ليس الله.

سيأتي الوقت، يقول النّبيّ، عندما يطرح الشّعب «**أوثانهم للجرذان والخفافيش**». وأحاديث يوم الرّبّ تلخّصها هذه اللاّزمة:

«سينخفض تشامخ الإنسان، وينحطّ ترفّع البشر، والرّبّ وحده يتعالى» (17/2).

مجيء الرّبّ لكي يدين شعبه هو موضوع نشيد الكرمة المفضّلة عند إشعيا(1/5 – 7). يستهلّ النّبيّ نشيده بالكلام على خيبته. فقد فعل كلّ ما بوسعه ليحصل على ثمر جيّد، فرأى أنّ كرمه أثمر حصرماً برّيّاً. فيسأل سامعيه: أين الخطأ، أيّ شيء يُعمل للكرم بعد؟ ثمّ يعلن ما هو مزمع أن يفعله. سوف يدمّره ويزيل سياجه ليصير مرعىً ويطلع فيه الشّوك والعوسج. فجأة، يشير النّشيد إلى أنّ الكرمَ هو بيتُ إسرائيل، وغرسَ بهجتِه شعبُ يهوذا، ويُظهر أنّ المقصود بالكرم هو

([5]) كلمة يهوه بالعبريّة، صارت مصطلحاً عالميّاً مستخدماً في جميع اللّغات، وتعني «الرّبّ»، «الكائن»، «الّذي يكون».

شعب يهوذا الّذي سبّب خيبة للرّبّ الّذي «**انتظر الحقّ فإذا سفك الدّماء، والعدل فإذا صراخ الظّلم**» (7/5).

رسالة إشعيا الأولى، إذاً، هي أن يذيع يوم الرّبّ كما أُمر في الفصل السّادس. فالرّبّ يرفع دعوى ضدّ شعبه ويدعوه إلى المرافعة أمام قضاتهم (18/1 – 20؛ 13/3 – 15).

«**يقول الرّبّ: تعالوا نتعاتب. إن كانت خطاياكم بلون القرمِز، فهي تبيَّض كالثّلج؟ وإن كانت حمراء غامقة، فهي تصير بيضاء كالصّوف؟ لو كنتم سمعتم لي، لأكلتم خيرات الأرض. ولكنّكم رفضتم وتمرّدتم عليّ فكنتم طعاماً للسّيف. أنا الرّبّ تكلّم.**

«**الرّبّ ينهض عن كرسيّ قضاته ويتهيّأ ليدين شعبه. الرّبّ يدعو إلى القضاء شيوخ شعبه وحكّامهم، فيقول: أنتم الّذين نهبتم الكروم وسلبتم المساكين وملأتم بيوتكم، ما بالكم تسحقون شعبي وتطحنون وجوه البائسين؟ يقول السّيّد الرّبّ القدير**».

يقول النّبيّ إشعيا إنّ الشّعب غير طاهر ومثقل بالإثم (4/1 – 6). ومع ذلك فإنّ هدف الله ليس الخراب، بل استعادة إسرائيل إلى الصّحة، وجعله شعباً مقدّساً لائقاً بخدمة الملك القدير. وكما أنّ شفتَي إشعيا تطهّرتا بالجمرة، سوف يسعى الرّبّ إلى تطهير شعبه كما بالنّار. فمن خلال آلام ذلك الزّمان الهائلة سوف ينقّي الرّبّ الخَبَث والشّوائب لتصير أورشليم مدينة البرّ (24/1 – 26).

«**أنقّي زغلكِ بالنّطرون وأزيل كلّ أقذاركِ. وأعيد قضاتكِ إليكِ كما في الأوّل، ومرشديكِ كما في البداءة، فتُدعَين مدينة العدل، المدينة الأمينة**».

آية عمانوئيل

تؤدّي الآية في الكتاب المقدّس دور البرهان على حقيقة كلمة الله وأصالة إعلان النّبيّ. ليست الآية عجيبة، كما يتراءى للبعض، بل عمل يرتبط بالنّبوءة الّتي يقولها النّبيّ بشكل حسّيّ أو بالأحرى قد يمثّلها.

ينصح النّبيّ إشعيا الملك آحاز بألاّ يتورّط في الحلف القائم على مقاومة أشور. ويعطيه آية ستحدث بعد عدّة سنين تبيّن أنّه إن سمع كلام الله ولم يتورّط سينجو ومملكته من الدّمار. يقول له إنّ العذراء ستحبل وتلد ابناً يُدعى عمّانوئيل الّذي معناه «الله معنا». وقبل أن يميّز الصّبيّ الخير من الشّرّ سوف ينهار الحلف المقاوم لأشور، ولكن ستأتي أيّام صعبة جدّاً إذ سيُطبِق أشور على يهوذا. يقول النّبيّ إنّ الخراب الّذي ستجلبه أشور سيؤدّي إلى دمار الموارد الزّراعيّة بحيث لا يبقى من طعام إلاّ الزّبد والعسل[6]. بهذا يشير النّبيّ إلى وعد مستقبليّ بأنّ الخطر الأشوريّ لن يستمرّ وسيزول، وسيعتلي الصّبيّ عرش الملك ويتمّم مشيئة الله.

حضور الصّبيّ سيكون آية وتأكيداً أنّ الله يقود شعبه بنار الدّينونة الإلهيّة إلى فجر يوم جديد. سوف يشارك الصّبيّ آلام شعبه ويعيش معهم في برّيّة الدّمار. ولكن لننتبه إلى أنّ «البرّيّة» تحمل معنى مزدوجاً عند الأنبياء، فهي زمن الدّينونة والتّأديب، وكذلك فرصة بداية جديدة نقيّة. ليس الدّمار غاية الله، بل تنقية شعبه وتطهيره. وحالما ينسحب الأشوريّون سوف يصعد الصّبيّ على العرش ليحكم كوكيل لله. وهكذا يصبح معنى اسمه «**الله معنا**» مفهوماً.

([6]) تدلّ وفرة الزّبد والعسل إلى النّقص في عدد النّاس من جرّاء الحرب القادمة ونتائجها السّيّئة على المملكة. كما أنّ الزّبد والعسل رمز لطعام الفردوس في تقليد العهد القديم.

نعرف من كتاب الملوك أنّ آحاز رفض نصيحة النّبيّ وطلب مساعدة أشور. وبعد مقابلته مع تجلات فلّصّر أمر ببناء مذبح في هيكل أورشليم على الطّراز الأشوريّ (2ملو 10/16 – 16)، كما قدّم أحد أبنائه ذبيحةً استرضاءً للآلهة. عند ذلك انسحب إشعيا ليدوّن نبوءته ويعتكف مع تلاميذه، الّذين كلّمهم قائلاً: **«اطلبوا أنتم يا تلاميذي شهادة الرّبّ وشريعته ومَن لا يفعل ذلك، فلا يضيء له الصّبح...»** (20/8).

تحقّقت هذه النّبوءة جزئيّاً في ابن آحاز الملك حزقيّا كما سنرى لاحقاً، لكنّها اتّخذت طابعاً مسيحانيّاً قويّاً، إذ تابع النّبيّ كلامه في وصف الصّبيّ الموعود بما تحقّق في شخص الرّبّ يسوع المسيح. **«لأنّه يولَد لنا ولد ويعطى لنا ابن، وتكون الرّئاسة على كتفه. يُسمّى باسم عجيب، ويكون مشيراً وإلهاً قديراً وأباً أبديّاً ورئيس السّلام. سلطانه يزداد قوّة، ومملكته في سلام دائم. يوطّد عرش داود أبيه ويثبّت أركان مملكته على الحقّ والعدل»** (1/9 – 6).

في الأمان والثقة قوتكم

قناعة النّبيّ إشعيا أنّ الرّبّ يسيّر التّاريخ ويستخدم أشور لكي يحقّق هدفه. يصوّر قناعته هذه بشكل جميل في الفصل العاشر:

«وقال الرّبّ: ويلٌ لأشور قضيب غضبي وعصا غيظي. أرسلتهم على أمّة كافرة، وأطلقتهم في شعبٍ أغاظني، ليسلبوا ثروتهم وينهبوا أرزاقهم ويدوسوهم كوحل الأزقّة» (5/10 – 6).

طبعاً أشور لا يدرك أنّه أداة في يد الرّبّ، ولا يعمل عمله خدمةً لله، فهو أساساً لا يعرفه ولا يعبده. إنّه يعتمد على قوّته وتجبّره وقسوته، ولذلك سوف يأتي دوره في الدّينونة، يقول النّبيّ: **«وبعد**

أن يُكمل الرّبّ جميع عمله في جبل صهيون وفي أورشليم، يحاسب ملك أشور على عاقبة الكبرياء في قلبه والافتخار في عينيه الطامحتين» (12/10). لذلك على المؤمنين أن يخضعوا لا للنّير الأشوريّ، بل لنير الرّبّ. على المؤمن أن يقبل دينونة الله كنداء إلى التّوبة عن أخطاء المجتمع الفاضحة، وعليه أن ينتظر، بصبر، الوقت الّذي يحطّم فيه الله كبرياء الأمّة المغرورة.

انطلاقاً من هذه القناعة نصح النّبيّ إشعيا الملك حزقيّا بعدم الثّورة على أشور. فالقوّة البشريّة لا تستطيع الوقوف في وجه دينونة الله وتمنعها. على غرار هوشع، أدان إشعيا التّحالفات السّياسيّة، وسمّاها «**عهداً مع الموت**» (18/28). كذلك أدان الاستقبال الحسن الّذي خُصّ به المندوبون المصريّون (فصل 18)، كما رفض مداولات حزقيّا السّرّيّة مع ملك بابل وأدان الّذين ذهبوا إلى مصر طلباً لمساعدتها واضعين ثقتهم في «**المركبات الكثيرة**» و«**الفرسان الأقوياء**» (1/31 – 3).

«فما المصريّون سوى بشر لا آلهة، وخيلهم جسد لا روح، فإذا رفع الرّبّ يده عثر النّصير وسقط المنصور وهلكوا كلّهم معاً» (3/31).

هذه الجهود السّياسيّة، في نظر النّبيّ، دلالة واضحة على عدم ثقة النّاس «بالسّيّد الرّبّ قدّوس إسرائيل» (1/30 – 15). لقد شدّد على بطلان الالتجاء إلى «**ظلّ مصر**»، مردّداً صدى نصيحته القديمة لآحاز (9/7). كما يوجز إشعيا ببلاغة معنى الإيمان هكذا: «**في التّوبة والطّاعة خلاصكم، وفي الأمان والثّقة قوّتكم**» (15/30).

ليس أمان يهوذا بسلوكها مسلك الأمم الأخرى، بل بالعودة إلى الله (التّوبة) والاعتماد على مشيئته، والثّقة بأنّ النّجاة منه وحده وفي الوقت المناسب. لكنّ الشّعب أجاب النّبيّ على دعوته بالرّفض «لا» (16/30). لقد أرادوا سبل القوّة كغيرهم ورفضوا النّداء إلى التّوبة.

اصطدم إشعيا طول خدمته بعدم قبول النّاس سماعَ ما يقوله الرّبّ في أحداث زمانهم: لقد تكلّم الله «**لكنّهم رفضوا أن يسمعوا**» (12/28).

آمن إشعيا، أكثر فأكثر، بأنّ بقيّةً فقط من المؤمنين سوف تسمع وتخلُص من الدّمار. لأنّ الرّبّ سيضع أساساً في أورشليم لأجل «**مدينة العدل المدينة الأمينة**» (26/1)، سيضع حجر زاوية ثميناً ومختبراً مؤلّفاً من البقيّة الباقية الّتي وضعت ثقتها بالله.

« ها أنا أضع في صهيون حجراً مختاراً، حجرَ زاوية كريماً، أساساً راسخاً، فمَن آمن به فلن ينهزم» (16/28).

نداء الإيمان بالرّبّ ملك إسرائيل والعالم، كان الموضوع المحوريّ للنّبيّ.

زمن الملك حزقيا

عندما لم تلقَ دعوة إشعيا قبولاً، انسحب من الحياة العامّة واعتكف في وسطه النّبويّ مع تلاميذه حتّى وفاة آحاز. لكنّه خرج من اعتكافه بمجيء حزقيّا، ابن آحاز، إلى العرش.

اعتلى حزقيّا كرسيّ المُلك في العام 715، وكان عهده نقطة انعطاف في تاريخ المملكة. كان قويّاً وحكيماً، على العكس من والده. قام بإصلاح دينيّ ألغى فيه أماكن العبادة الوثنيّة الّتي كانت منتشرة في المملكة، ودّمرها؛ حتّى إنّه أمر بسحق الحيّة النّحاسيّة الموجودة في الهيكل، تلك الّتي صنعها موسى النّبيّ بحسب التّقليد، خوفاً من الانزلاق بسببها نحو الوثنيّة. رمى حزقيّا إلى تنقية العبادة ومَرْكَزَتها في أورشليم. اللاّفت أنّ إشعيا لم يُعِرْ الإصلاح اهتماماً، ولم يتحدّث

عنه. (سيتكرّر هذا الموقف مع النّبيّ إرميا بعد حوالي مئة عام). يرى النّبيّ بعيون الله، فكلّ إصلاح رسميّ ومفروض هو إصلاح خارجيّ. يريد الله إصلاحاً داخليّاً يغيّر قلب الإنسان. يبدأ تعليم الله، مع الأنبياء، بضرورة إصلاح داخل الإنسان. وتدريجيّاً سوف تعلو نبرة هذا التّعليم إلى أن تكتمل مع المسيح، ويصبح الدّين المطلوب دين النّقاوة الدّاخليّة، الّتي تصير الأعمال الصّالحة تعبيراً وانعكاساً لها وليست غاية بحدّ ذاتها[7].

ككلّ الإصلاحات الدّينيّة، حمل إصلاح حزقيّا بعداً سياسيّاً معيّناً. فقد كان يرمي إلى إشعال الحسّ القوميّ بغية التّحرّر من النّير الأشوريّ. لذا، هدم المذبح الّذي كان أبوه قد أقامه في الهيكل استرضاء لملك الأشوريّين. وقد شّجعه على إصلاحه هذا انشغال سرجون بالقتال في جبال بلاد الرّافدين الشّماليّة. حفر حزقيّا نفقاً في الصّخر من أجل جلب المياه إلى أورشليم، وبنى بركة سلوام الشّهيرة لخزن المياه فيها. كذلك، رمّم الأسوار وحصّن المدينة تحصيناً جيّداً.

جُرّب حزقيّا بالانضمام إلى التّمرّد القائم ضدّ أشور في العام 702. ويتكلّم الفصل (20) عن تمرّدٍ أشعله المصريّون في مدينة أشدود الفلسطينيّة. في تلك الفترة، جاب إشعيا شوارع أورشليم حافياً عارياً في عملٍ رمزيّ[8]، ليدلّ على فشل التّمرّد، وعلى معارضته الدّخولَ فيه. وبالفعل، عاد سرجون إلى فلسطين، وأخمد الثّورة، بعد أن دمّر مركزها أشدود. ونجت يهوذا بتحييدها الّذي أدّى إشعيا دوراً فيه من خلال تأثيره في آحاز.

([7]) يتكلّم إشعيا عن العبادة الدّاخليّة الحقّ بأجمل التّعابير. راجع الفصل الأوّل والفصل58.

([8]) راجع المربّع رقم 1، «الأعمال الرّمزيّة عند الأنبياء».

أزمنة ثورات

أشعل موت سرجون سلسلة من الثّورات في سائر أرجاء الإمبراطوريّة الأشوريّة. وتمركزت الثّورة في بابل، فأرسل قائدها موفَدين إلى فلسطين ليشّجعوا ملوكها على الثّورة. عارض إشعيا ذلك، لكنّ حزقيّا لم يقدر على مقاومة الانضمام إلى جيرانه الثّائرين. فقد جمح إذ حارب بعض ملوك الفلسطينيّين الّذين رفضوا الانضمام إلى الثّورة وأخضعهم. نصحه إشعيا، كما نصح أباه قبلاً، بأن يوقف الثّورة، فلم يسمع له.

لكنّ سنحاريب خليفة سرجون استطاع القضاء على التمرّد في بابل، وقام بحملة مظفّرة على فينيقية وفلسطين. كما هزم جيش مصر في مدينة لاخيش الفلسطينيّة، ومن ثمّ بدأت المدن تسقط أمامه الواحدة تلو الأخرى، فانقطعت سبل المساعدة عن أورشليم من كلّ الجهات. وقد قال سنحاريب عن حزقيّا إنّه محبوس «كعصفور في قفص».

شبَّه إشعيا الدّمار الحاصل بسبب الثّورة وإخمادها بدمار سدوم وعمورة. ووصف الحالة هكذا:

«ويل للأمّة الخاطئة، للشّعب المُثقَل بالإثم، لنسل الأشرار والبنين المفسدين! تركوا الرّبّ واستهانوا بالله قدّوس إسرائيل، وإليه أداروا ظهورهم.

أين تضربون بعد وأنتم تمعنون في التّمرّد عليّ، أعلى الرّأس وكلّه مريض؟ أم على القلب وهو بأكمله سقيم؟ من أسفل القدمين إلى قمة الرّأس لا صحّة فيكم! بل جروح ورضوض لا تُضمَّد، وقروح طريئة لا تُفقَأ ولا تُليَّن بزيت. أرضكم خراب ومدنكم محروقة بالنّار. حقولكم يأكل غلالها الغرباء أمام عيونكم؟ خرابها كخراب سدوم وعمورة» (4/1 – 7). إصرار الشّعب على الاستمرار في خطاياه،

ومقاومته للتّوبة سيضطرّان الله إلى السّماح بالشّدائد الآتية كي يخلق شعباً جديداً.

ستتضايق أورشليم من الحصار، ولكنّها لن تسقط ولن تُدمَّر. «**ابنة صهيون بقيت وحدها، كخيمة في كرم، ككوخ في مزرعة، كمدينة تحت الحصار. ولولا أنّ الرّبّ القدير ترك لنا بقيّة من النّاجين، لصرنا مثل سدوم وأشبهنا عمورة**» (8/1 – 9).

أتى رئيس أركان جيش أشور إلى أورشليم، وهدّد السّكان والجنود بالويل إن لم يستسلموا، كما استهزأ بإلههم معتبراً أنّ ما من آلهة مدن أخرى وقفت المدينة بعد حصار قاسٍ وطويل.

موقف إشعياء خلال الغزو والحصار

اعتبر إشعيا، في بدء رسالته، أنّ أشور عصا تأديب الرّبّ ليهوذا، ولهذا دعا الملك آحاز إلى عدم التّمرّد عليها. لنتذكّر أنّ النّبيّ يحمل كلمة الله ويقرأ أحداث الواقع على ضوئها. آمن إشعيا بأنّ أشور أداة في يد الرّبّ الّذي يستخدمها لمحاكمة شعبه.

طمأن إشعيا الشّعب إلى أنّ أورشليم لن تسقط. فهدف الله الخلاصيّ مرتبط بمدينة أورشليم بشكل خاصّ. ففيها الهيكل وتابوت العهد. إنّها المدينة الّتي أسّسها الله (32/14). مدينة صهيون هذه «**مقرّ الرّبّ القدير**» (7/18). في الهيكل رأى الرّبّ وتسلّم دعوته. إنّها مدينة داود[9].

لكنّ خلاص المدينة لا يعود إلى حسن سلوك أهلها وعظمة ملكها وصلاحه، بل إلى نعمة الله الّذي يحقّق وعوده في الوقت الّذي يراه،

([9]) كان إشعيا النّبيّ من المؤمنين باللاّهوت الدّاوديّ الّذي أشرنا إليه سابقاً.

وبالطّريقة الّتي يراها. لقد تحوّل موقف إشعيا في أثناء الحصار إلى تماسك دينيّ. وعندما ينتهي عمل الله التّطهيريّ على جبل صهيون (21/28) سوف يعاقب الإمبراطوريّة الأشوريّة المغرورة. سوف تسقط أشور «**لا بسيف إنسان، وتُؤخذ لا بسيف بشر**» (8/31)، لأنّ الرّبّ القدير سوف ينزل للقتال، ويحمي أورشليم، ويعفو عنها، وينجّيها (4/31 - 9).